قطرة جاز

تركتُ ذلك السرير البائس، الذي خاصمه النوم، وتوجهتُ ناحية الشرفة، بدأ الظلام يحتضن الشارع، غير أن حركته لم تهدأ بعد ..

_تُرى هل أصبتُ فيما عزمتُ عليه، أم أنني جننتُ كما وصفني أخي ذات يوم؟

«ماذا يقول عنّا الناس» لقد كرهت هذه الجملة بفضل أخي الذي يعطي القيل والقال قدرًا فوق ما يستحق، لكن طائر الموت الذي حلّق فوق بيوت العائلة لمدة ثلاثة أعوام، كان قادرًا على تلقينه الدرس جيدًا.

نظرت إلى الحقيبة القابعة على الكرسي كجثة هامدة، أخرجته، أبيض كالثلج، يذكرني بالسلام الذي افتقدناه، يوحي بالبهجة والتفاؤل أيضًا.

_تُرى هل يكمن الخير بين طيّاتك؟

ولمَ لا..؟! يكفي أن براكين الدماء ستخمد، سيفرّ الخوف الذي سكن عيون الصغار وقلوب الكبار، سأغمض عينيّ بطمأنينة بعد معاناة دامت طويلًا، تمر ساعات الليل بطيئة كسلحفاة ضلت طريقها، فتصرعني الهموم والآلام ..

لقد تركتني الإنسانة التي اختارها قلبي؛ لتكمل معه معارك الحياة، لم أعد مناسبًا لها بعد اليوم، كذلك قال أبوها بعد أن عرف ما عزمت عليه، رغم أن دموعها في آخر لقاء بيننا قالت غير ذلك.. إلا أنني شيَّعت بقاياها، ووأدت تلك الدموع بلا تردد.

لقد انقلبت حياتنا رأسًا على عقب خلال تلك السنوات الثلاث،

ما عدت أركز في علم أو عمل، حقًا ضقتُ بهذا الشتات، لم أعد أتحمل سماع نحيب أمي وهي تختبئ به بعيدًا عن أعيننا، لقد اشتعل رأسها شيبًا قبل الأوان، وتخضبت أيامها بحمرة الدماء ومرارة الفقد.

قطرات من الجاز هي بطلة موقف تافه فتح حسابًا جاريًا من الخسائر المتبادلة بين عائلتين، حين اعترض الشيطان طريق رجلين ونفث السم في قلبيهما، فاستبدَّ بهما العناد، وكل منهما يقسم أن يكون هو الحاصل أولًا على حصته من الجاز، استولى الغضب على أبي، فضرب الرجلَ ضربة أودت بحياته، من أجل قطرات من الجاز دفعنا الثمن أنهارًا من الدماء، ولياليَ من الخوف، توفي أبي بالحمى بعدها بثلاثة أشهر وترك لنا ذلك الإرث، الذي سأدفنه غدًا أمام الجميع، دقائق معدودة وينتهي كل شيء..!

****

اثنان من الأجاويد، كل واحد منهما يمسك بذراع، أنقاد بينهما والكفن مستلقٍ على يدي كطفل أخشى سقوطه، أسير في مشهد مهيب بين ما يزيد عن ألفيّ نفس من أهل القرية وخارجها، أسرة القتيل على رأس الحضور، يصطفون في انتظارنا، يتوسطهم صاحب الدم، شاب في العشرين من عمره، طالما جلس أمامي، طالما حدثته عن الأخلاق والمبادئ..

أشعر أن قدمي لا تقوى على احتمالي، أسير بخطوات عجوز في السبعين، حاولت طرح خواطر الشؤم عن عقلي، ستجف أنهار الدماء اليوم على يدي.. أقصد على كفني..

أصوات تنادي، واسمي يتردد في مكبر الصوت الذي يصلني متقطعًا، تفترسني النظرات بلا رحمة، دقات قلبي تزلزل أركاني، الشيخ يردد كلامًا طيبًا، غير أن عقلي المشتت يحول دون استيعاب كل ما يقال.

أمام الشاب ذي العشرين عامًا، وقفت في انكسار حاولت جاهدًا أن أخفيه، لكنه أبى إلا الظهور، تلاقت العيون فنسجت حديثًا مبتورًا، وضع الشيخ يده على كتفي ثم قال:

_"جئتُ إليك أطلب الصفح والعفو"؛ فقلتها خلفه بصوت واضح، ثم دار بوجهه ناحية الشاب -صاحب الدم-، وقال:

_"عفوت عنك لوجه الله"، لكن الشاب لم يردد، أعادها الشيخ ثانية وثالثة، بدأت دقات قلبي تزداد اضطرابًا، غمغم الحضور وضج المكان بضوضاء لم يقطعها سوى صوت الشاب الذي انفجر باكيًا ثم جثا على ركبتيه يقبل يدي، حاولت أن أثنيه عن ذلك، فراح يقول بصوت محشرج:

_ كيف لا أعفو عن معلمي، كيف لا أعفو عن معلمي؟!

ساد الهرج والمرج للحظات، وامتعض أهل القتيل، سيما أمه التي ترفض الأمر برمّته، فراحت تكيل اللعنات لابنها وكل من وافقه على أمر القودة.